ومن الظلم والاستعباد إلى العدل والتحرير! وهذه هى مزايا الموكب الحضارى الإسلامى وأمجاده التى أدركها إقبال كشاعر عبقرى وفيلسوف عظيم فأحبّها وأعجب بها، ورأى من واجبه كمسلم صادق أن يبرزها وينوه بها ويدعو البشرية إليها لتعيش فى ظلالها حياة الأمن والرخاء والسعادة والفلاح! ولكنه رأى فى نفس الوقت، مع الأسف الشديد، أن الغرب الصليبى، تحت تأثير الاستشراق والاستعمار، يحاول دائما أن يهمل هذا الدور البناء النافع للموكب الحضارى الإسلامى ويغمض عنه ويزدريه! وفوق ذلك كله فإن العرب والمسلمين أنفسهم قد ضلوا طريقهم وأنساهم الزمان تلك القيم الحضارية وجعلهم يقلدون الأجانب وينبذون أمجادهم وراء ظهورهم مما أحزنه كثيرا وقد كرس حياته فى إيقاظ العرب والمسلمين، وراح يذكرهم بقيمهم الحضارية ودورهم الحضارى البناء النافع فى تشييدها وبنائها، مرة فى شعره الأردى أو الفارسى، وأخرى فى خطبه الإنجليزية، وقد بقيت أمنيته العزيزة عليه تقلقه وتقيمه وتقعده، وهى قدرته على التعبير بالعربية والخطاب المباشر للأمة العربية، ثقة منه بأن العرب وحدهم يستطيعون أن يقودوا أمة الإسلام، وأنها لن ترضى بطاعة غيرهم! وأن اليوم الذى يشعر فيه العرب بهذه المسؤلية والحقيقة الناصعة سيكون هو آخر يوم من الذل والهوان والتخلف فى حياة الأمة الإسلامية، وأن نهضة الإسلام الجديدة سوف تتحقق يوم يأخذ العرب رأية الإسلام ومقاليد القيادة الإسلامية!!

إذن فقد كان لا بد من تحقيق أمنية إقبال هذه، وكان من واجب العرب والمسلمين جميعا أن يقوم أهل العلم منهم بإبلاغ رسالة إقبال إلى العرب والتعريف به فى العالم العربى ويؤدوا واجبهم فى تحقيق أمنية إقبال التى طالما

احتلت مكان الصدارة فى قلبه وسيطرت على عقله وذهنه وأقامته وأقعدته فى غدواته وروحاته!!

فالتعريف بإقبال بالعرب فى بلادهم وإبلاغ رسالته إليهم قد كانت حاجة مشتركة وضرورة متبادلة بين إقبال وإخوانه العرب الكرام فقد كان إقبال فى حاجة إلى من يعرِّف به فى العالم العربى ويبلغ رسالته إلى الأمة العربية كما أن العرب قد كانوا فى أمسِّ الحاجة وأشدها أن يستفيقوا من نومهم الطويل وسباتهم العميق ويكونوا على وعى واستعداد للقيام بواجب المسؤلية نحو أمة الإسلام لا بل نحو أنفسهم قبل كل شئ لكى يتمكنوا من القيام بدورهم القيادى فى وحدة الأمة الإسلامية ونهوضها وإعدادها للمعركة المصيرية وإرشادها فى هذا الظلام الحالك المحيط بها! نعم كان لابد لإقبال أن يعرف فى العالم العربى من المحيط إلى الخليج وأن يقوم أبناء أمة الإسلام بترجمة شعره و فكره إلى العربية كما كان لابد للعرب من دراسات إقبال و إقبالهم عليها، ومن العلم بما كان "نسيم الحجاز" (إقبال!) يتمنى للعرب وهو أن يرى "قوافل الحجاز" (قوافل العرب الجديدة!!) وقد استعدت للرحيل فى السفر المبارك من جديد! وكيف كان يتمنى إقبال أن يرى "الحضارة الحجازية" (حضارة الإسلام!) وقد نهضت لتقوم بدورها البناء النافع كدورها الأول ، وأن تستعيد مجدها الذاهب وأن تعيد الكرة فى كافة المجالات وعلى أوسع نطاق وأوفاه! و فعلا قد نشأ أبناء أمة الإسلام البررة الأوفياء الذين أوفوا الحق لإقبال وللعرب جميعا! ولست أقول أن رسالة إقبال قد وصلت إلى العرب بأكملها وبتفاصيلها وأن شعره وفكره قد أبلغ للعرب كما يجب وأنهم قد عرفوا إقبال حق المعرفة وأنهم قد أدركوا رسالته حق الإدراك ، ولكن الذى تم إلى الآن يستحق منا كل إعجاب وتقدير وهو بالاهتمام جدير!!

وإذا كان الشاعر الأستاذ الدبلوماسى المصرى العظيم الدكتور عبدالوهاب عزام سفير مصر الأول لدى حكومة باكستان قد حاز قصب السبق وكسب فضل الريادة فى التعريف بإقبال فى العالم العربى و ترجمة شعره إل العربية شعرا فلشيخنا الإمام الندوى رحمه الله فضل الجودة والكمال فى الموضوع ليس فى التعريف بإقبال فحسب بل فى ترجمة شعره ترجمة سلسلة سهلة سلة خلابة تجذب القلوب وتقنع العقول! إن خيرما ألف أو كتب بالعربية عن إقبال وما ترجم من شعره إليها إنما هو كتاب " روائع إقبال" للشيخ العلامة الإمام أبى الحسن على الندوي ، قائد ندوة العلماء وإمام جامعتها والرئيس المؤسس لرابطة الأدب الإسلامى العالمية ، رحمه الله رحمة واسعة و أسكنه فى فسيح جنانه و جوار رحمته و كنف غفرانه!

و أول اتصال تم بين إقبال والعالم العربى قد كان من طريق المراسلة بينه وبين معقل الإسلام المنيع فى الشرق الأوسط، الازهر الشريف ، فقد كتب إقبال رسالة ، كما عرفنا ، إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ المراغى ، رحمه الله ، ثم أتيح للعلامة محمد إقبال أن يزور مصر و فلسطين فقابل شيخ الأزهر و زملاءه الأفاضل والقادة الشباب من جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة كما التقى بالعديد من زعماء مصر و علمائها ومشائخها و متصوفيها ثم بمفتى فلسطين الأكبر الشيخ أمين الحسينى و أعضاء المؤتمر الإسلامى بالقدس الشريف ، بالإضافة إلى المندوبين المسلمين الذين حضروا للمشاركة فى المؤتمر الإسلامى ، وأول ما بلغ العرب من المعلومات عن إقبال كان من طريق اللغة الإنجليزية فقد كان المستشرق البريطانى الأستاذ تومس أرنولد يكثر من زيارته لمصر ، وكان ينزل دائما بحلوان مدينة الأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام، وقد عرفنا أن هذا المستشرق البريطانى كان أستاذاً أوصديقا لإقبال كما كان

أستاذا و صديقاً لعزام · وقد ترجم أرنولد ديوان الأسرار والرموز لإقبال إلى الإنجليزية مع مقدمة مبسطة عرف فيها بالشاعر و فنونه الشعرية و آرائه الفلسفية و أفكاره الإسلامية · وقد اطلع عليه عزام وغيره من المصريين كما ألقى إقبال كلماته الإنجليزية بمقر جمعية الشبان المسلمين و بالحفلات والجلسات القاهرية الأخرى الخاصة منها والعامة ، وقد ونشر كل ذلك من طريق المترجمين فى الجرائد العربية المصرية · وهكذا اجتمعت لدى المصريين معلومات غير قليلة عن إقبال وعن فكره و فنه مما جعلهم يعرفون باقبال ويكتبون عنه، فمنهم من كتب عنه المقالات الصحفية أو ألف كتابا مستقلا عن حياته و فكره، ومنهم من ترجم شعره إلى العربية شعرا كالأستاذ الدكتور عزام أو ترجم بعض مؤلفات إقبال من الإنجليزية إلى العربية كالأستاذ عباس محمود غير العقاد الذى ترجم خطب إقبال أو محاضراته من الإنجليزية إلى العربية وسماها:" تجديد الفكر الدينى فى الإسلام" وهذه المادة الدسمة من المعلومات عن إقبال وشعره وفكره قد زودت العرب بالمعلومات عن شاعرهم الناصح لهم المعجب بماضيهم المجيد والمتمنى لهم بالمستقبل السعيد · والفضل فى ذلك كله يرجع إلى إخواننا المصريين وعلى رأسهم مترجم إقبال العربى الأول الدكتور عبدالوهاب عزام! وهكذا تحققت أمنية إقبال بعد وفاته وبلغت رسالته إلى الأمة العربية · إلا أن هذه التراجم ينقصها · بطبيعة الحال · أشياء · ومنها الفهم الخاطئ أو الغموض و الإبهام · والرواد لا يرجى منهم المعجزات فكفى لهم فضل الريادة والسبق، جزاهم الله خيرا، وأن خير من ترجم شعر إقبال إلى النّثر العربى هو الأستاذ الدكتور محمد سعيد جمال الدين الذى ترجم (جاويد نامه) وسماه رسالة الخلود كما أن خير من ترجم شعر إقبال إلى العربية شعرا هو الشيخ الصاوى على شعلان الأزهرى صاحب "إيوان إقبال" والذى

ترجم "الشكوى والرد عليها" لإقبال وقد أبدع فى ترجمته هذه وبلغ الغاية فيها وقد سماها بحديث الروح ، و يبدو ، وكأنها ليست ترجمة ، وإنما هى قصيدة أصلية قد أنشأها شاعر عربى ، فقد نقل الشيخ الصاوى معانى إقبال ، بعد أن حفظها حفظا و استوعبها استيعابا، ثم سبكها نظما بديعا يبدو وكأن إقبال نفسه قد تحول إلى الصاوى فأنشد شعرا عربيا رصينا رائعا، إن الصاوى ، رحمه الله ، قد جعل من إقبال شاعرا عربيا و أخذ العرب كبيرهم و صغيرهم وخاصتهم وعامتهم فى نواديهم ومجالسهم و فى أزقتهم و شوارعهم ينشدون شعره و يعتقدون بأنه شاعر عربى قح، وقد أضافت السيدة أم كلثوم كوكب الشرق إلى رونق الشعر و بهائه و روعته وجماله ، حين غنت "حديث الروح" بصوتها الحلو الجميل، فسحرت العرب سحرا وجعلت منهم "إقباليين" المعجبين بإقبال ، وحتى أنهم لايصدقون من أخبرهم بأن إقبال ليس شاعرا عربيا، ويتقاتلون معه ويسبونه وقد يضربونه !!

وكأن الوقت كان ينتظر شخصا قد لقى إقبال غير مرة وأخذ ينشد شعره منذ نعومة أظفاره ، يقرأه فيفهمه فيعجبه فيعيد قرائته ثم يحلو له أن يترجم الشعر إلى العربية نثرا ثم يأتى به إلى إقبال فيريه ما ترجمه من شعره فيرى إقبال ترجمة الشاب المراهق فتعجبه وبستحسنها إقبال فيشجع الشاب على أن يستمر فى ترجمة شعره إلى العربية، وكان إقبال يعرف العربية جيدا إلا أنه لم يحاول أن يتحدث بها وخاف من نظم الشعر بها إلا أنه علم و تأكد له بأن الشاب المراهق لقادر على الترجمة و أنه يستطيع أن يترجم شعره إلى العربية شعراً و سوف يطلع عليه العرب وسيعرفون بضاعتهم التى لم ترد إليهم ، و إنما كانت خافية عليهم بجهولة عنهم فظهرت و عرفت فوصلت إليهم ! إن ذلك الشاب المراهق كان هو أبو الحسن على الندوى الذى تفرس فيه إقبال

تحمسا للإسلام وحبا لرسوله وإكبارا للعرب وإعجابا بشعر إقبال وقدرته على التعبير بالعربية فكأنه أجاز له بالترجمة و حمّله مسئوليتها وهو حى ، وقد أدى الشيخ الندوى حق المسئولية ، فترجم شعره و فكره و عرف به حق التعريف وقام بالواجب حق قيام!

ندويان زميلان فى الدرس والعمل قد قام كل واحد منهما بتعريف عالم وزعيم من أهل شبه القارة بالعالم العربى و ترجمة أعماله العلمية و آثاره الأدبية إلى اللغة العربية ، وقد نجح الندويان كلاهما فيما قاما به و أراداه وقد ساعدهما الجو القائم فى البلاد العربية و خاصة فى مصر ، بوجود "الإخوان المسلمون" و أما أحد هذين الندويين فهو الشيخ مسعود عالم الندوى الذى ترجم أعمال الإمام المودودى ، رحمه الله ، إلى العربية وعرفه بالعرب المثقفين المتدينين ، وقد أتيح لهذه الأعمال المعربة جوّ ملائم كان الإخوان قد أوجدوا هذا الجو المناسب وتعاطوا التراجم فيما بينهم ونشروها فى أقاصي العالم العربى و أدانيه، فاشتهر الإمام المودودى فى الأوساط العلمية العربية ، وعرف بين المثقفين والعلماء و لاقت كتبه ترحيبا حارا وسوقا نافقة فلولا مسعود الندوى والجو المناسب الذى أوجده الإخوان لما عرف المودودى بتلك السرعة والسهولة!

وأما الندوى الثانى فهو شيخنا الجليل الإمام أبو الحسن على الحسنى الندوى الذى عرفه العرب واشتهر بينهم قبل أن يقوم هو بتعريف غيره بالعرب وتقديمه إليهم. وقد كان فى عُهدته وذمته أن يترجم شعر إقبال إلى العربية و أن يعرف به العرب حق تعريف وقد فعل! و أنجز ما كان فى ذمته من الواجب و فى عهدته من المسئولية نحو إقبال ، ولكن الجو الذى وجده كتاب "روائع إقبال" لم يكن الإخوان وحدهم قد أوجدوه و إنما شاركهم فى ذلك

غير الإخوان من المصريين ، وعلى رأسهم و فى مقدمتهم الدكتور عبدالوهاب عزام! فقد كان الجو المناسب جاهزا بل كانت هناك أسباب و دواعى دعت أبا الحسن الندوى و ألحت عليه فى الدعوة إلى أن يقوم بتعريف إقبال و ترجمة شعره المختار فهذا هو فقيد العربية و أديبها و عالم دمشق وخطيبها و داعية الإسلام و نصيره العلامة على الطنطاوى يوجه كتابا مفتوحا إلى الإمام الندوى ويحثه على أن يقوم بترجمة شعر إقبال و توضيح رسالته التى أراد أن يبلغها إلى العرب فقال "فهل لك يا أخى أبا الحسن أن تختار من شعر إقبال ما يجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، ونتحلى أسباب عظمته فإن كل ما قرأنا من كلامه مترجما إلى العربية لم يعرِّفنا به و لم يدلنا عليه... فهل تضيف يا أخى! يا أبا الحسن ! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة وتحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان و إلى الأدب و الإسلام؟!"

فهذا رأى و رجاء فى نفس الوقت ! رأى نقدى لناقد بصير قد اطلع على ما ترجم من شعر إقبال إلى العربية و درسه فلم يدرك شيئا منه و لم يفهم معناه وهذا هو نفس رد الفعل لكل قارئ عربى يقرأ شعر إقبال المترجم إلى العربية فلا يفهمه، و ذلك بسبب الغموض والإبهام والتعقيد الذى أحدثه المترجمون ولكن لايوجد من ذلك الغموض والإبهام والتعقيد شئ فى نصوص إقبال الشعرية الأصلية ، وهذه هى نفس المشكلة التى أواجهها أنا فى أكثر الأحيان عندما أقرأ النص المترجم إلى العربية من شعر إقبال لهؤلاء المترجمين حتى ولو كنت أحفظ بيت إقبال بنصه الأردى أو الفارسى!! فهذا هو الحكم النقدى من قبل الشيخ الأديب العلامة على الطنطاوى على ما ترجمه العرب من شعر إقبال إلى العربية شعرا، غيرما ترجمه الشيخ الصاوى شعلان! وفى

نفس الوقت فى هذه الرسالة المفتوحة رجاء صديق من صديق لترجمة شعر إقبال المختار ، و روائع إقبال هى الإجابة على هذا الرجاء الذى وجهه الطنطاوى إلى صديقه الندوى!!

وأرى أن هذا الغموض أو التعقيد الذى يوجد فى هذه التراجم العربية لشعر إقبال يرجع إلى أسباب ومنها وعلى رأسها هو أن ترجمة شعر إلى لغة أخرى شعرا عمل صعب ومتعب جدا ، لأنك تستطيع أن تترجم معنى الشعر ، ولكنك لا تستطيع أن تترجم تأثير الجو من الموسيقى واللحن والصوت الذى يوجد فى لفظ الشاعر وتركيبه الأصلى، و من ثم الناس يفضلون ترجمة شعر من لغة إلى أخرى نثراً و ليس شعراً، ومنها أن الإخوة العرب الذين ترجموا شعر إقبال لم يكونوا شعراء العربية الكبار و إنما كانوا أساتذة جامعيين و أدباء مؤلفين وشعر العلماء و الفقهاء لايكون ، بطبيعة الحال ، شعرا جيدا ، و منها أن الترجمة تحتاج إلى قدرة المترجم على اللغتين كلتيهما ، و منها أن المترجم يجب أن يكون على علم شامل بالأوضاع الاجتماعية و الثقافية و الأدبية واللغوية للغة يترجم إليها النص بالإضافة إلى المعلومات الشاملة عن الأصل ومؤلفه ، وفوق ذلك كله فإنه يجب أن يكون المترجم على مكانة من الكفاءة العقلية و الخبرة العلمية فى مجال الترجمة!

على كل حال فإن تراجم شعر إقبال إلى العربية شعراً ينقصها أشياء كثيرة كما أن المعلومات التى توجد عن حياة إقبال وثقافته و فنّه بالعربية قليلة وناقصة جدا ، لأن المعرفة الشاملة عن حياة المؤلف وخلفيته الثقافية تساعد فى فهم النصوص الأدبية أو العلمية التى ينتجها ذلك المؤلف أو الكاتب أو الشاعر بالإضافة إلى دراسة النص الشاملة العميقة الواسعة، و أن تتم الترجمة على مهل، وبفكر و روية كما كان يفعل الشيخ الصاوى على شعلان الأزهرى ، رحمه

الله ، فقد رأيته ، حين زرته بمنزله فى القاهرة ، ينجز ترجمة بيتٍ شعرى لإقبال خلال أيام أو أسابيع! فقد كان يأخذ بيتا فيدرس مفرداته اللغوية أولا وقبل كل شئ ثم يترجم البيت ترجمة حرفيّة ويناقش جوانبه اللغوية والبلاغية مع بعض الأساتذة والطلاب الباكستانيين حتى يستوعب جوانبه الثقافية والأدبية كلها ويحفظ معنى البيت ويختمر مفهومه ثم يقوم مقام إقبال ولكن كشاعر عربى ثم يحوِّل هذه المعانى والمفاهيم إلى العربية بأسلوب عربى مستقل ، وحينئذ يبدع البيت الشعرى و كأنه قد صيغ صياغة عربية أصيلة قد تفُوق الأصل الأردى أو الفارسى! وبهذا السبب يمتاز ما ترجمه شعلان من شعر إقبال إلى العربية شعرا بين جميع التراجم الأخرى التى سبقته أو تمت بعده، و ذلك قليل جدا!

وأما صاحب "روائع إقبال" الشيخ الإمام أبو الحسن على الندوى فحدث عنه وعما كتبه عن إقبال ، ولا حرج!! فقد كان الشيخ رحمه الله ، على مكانة من العلم والثقافة والأدب والفكر كما أنه كان يتقن اللغات الثلاث: العربية والفارسية والأردية بحكم ثقافته الواسعة وعلمه الغزير وفكره العميق ، وهو أعلم الناس بإقبال ومدرسته الأدبية وقد كان على صلة قريبة به، وهو المترجم الوحيد الذى صادق على ترجمته إقبال نفسه و أذن له بذلك و شجعه عليه ، وقد تحدث الشيخ عن صلته بالعلامة محمد إقبال وحكى قصة لقائه الأول معه بقوله:

"كنت فى السادسة عشرة من عمرى ، وقد قدر لى أن أزور لاهور، بلد العلم والثقافة فى الهند– غير المنقسمة– ومقر الشاعر العظيم ، وفى يوم صائف شديد الحر من أيام أيار الأخيرة أخذنى الدكتور عبدالله الجغتائى – أستاذ الفن الإسلامى فى جامعة بنجاب اليوم– إلى محمد إقبال ، وقدمنى إليه

و ذكر شغفى بشعره · وذكر والدى مولانا السيد عبدالحى الحسنى الذى كان يعرفه محمد إقبال و يعرفه الأدباء و المثقفون بكتابه العظيم "كل رعنا" تاريخ الشعر والشعراء فى الهند الذى كان قد صدر حديثا ولفت الأوساط الأدبية وأثار الاهتمام فيها · وقدمت إليه ترجمتى لقصيدته البديعة (القمر) فتصفحها محمد إقبال و وجه إلى أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبربها دراستى وثقافتى· وانتهى المجلس ورجعت معجبا بتواضع الشاعر العظيم وبساطة مظهره و عدم تكلفه فى المعيشة والحديث!"

وقد تم هذا اللقاء فى سنة ١٩٢٩م ثم زار الشيخ لاهور قبيل وفاة إقبال فى سنة ١٩٣٧م وبقى بها شهورا· وزار خلالها إقبال فى منزله مع عمه السيد طلحة الحسنى الأستاذ بالكلية الشرقية لجامعة بنجاب بلاهور · وقد طال هذا اللقاء الأخير والآخر وامتد إلى ثلاث ساعات! وكان إقبال يعانى من وطأة مرضه العضال الذى مات فيه · وفى خلال هذا اللقاء الطويل قد تحدّث إقبال عن شتى الموضوعات · تحدث عن الشعر العربى وعن الإسلام وما أثار فى أتباعه من روح الجهاد والكفاح وعن التصوف والتجديد الإسلامى فى الهند وعن مستقبل المسلمين وغير ذلك من الموضوعات · وكان الحديث ممتعا و مفيدا · وقد أثر فى نفس الشيخ فزاده حبا لإقبال وإعجابا به · ولذلك الحب والإعجاب للذين يحفل بهما كتابه "روائع إقبال" الذى هو خير ما كتب عن إقبال بالعربية حتى اليوم! وقد أثنى عليه المثقفون والأدباء وقدّره "الإقبانيون" فى كل مكان · وهو كتاب يستحق هذا الثناء والتقدير إذهو يقدم إقبال وفنه ورسالته إلى العرب فى لغتهم بأسلوب أدبى جميل يضاهى أسلوب الفطاحل من العلماء والأدباء العرب فى القديم والحديث!

وننهى حديثنا ونكمله بكلام الشيخ عن إقبال وعن إعجابه بـه وحبـه له واهتمامه برسالته وفكره ويدل علـى التشـابه القـوى بـين الرجلين أى بـين العلامة إقبال وبين الإمام الندوى فيقول الشيخ:

"إن أعظم ما حملنـى علـى الإعجـاب بشـعره هـو: الطمـوح والحـب والإيمان ! وقد تجلى هذا المزيج الجميل فى شعره و فى رسالته أعظم ممـا تجلـى فى شعر معاصر· ورأيت نفسى قد طبعت على الطموح والحب والإيمان وهـى تندفع اندفاعا قويا إلى كل أدب ورسالة يبعثـان الطمـوح وسمـو النفـس وبعـد النظر والحرص على سيادة الإسلام و تسـخير هـذا الكـون لصالحـه والسـيطرة على النفس والآفاق· ويغذيان الحب والعاطفـة ويبعثـان الإيمـان بـالله والإيمـان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبعبقريـة سـيرته وخلـود رسـالته وعمـوم إمامتـه للأجيال البشرية كلها".

***

السيد أبو الحسن علي الندوي

مرزا آصف رسول*

بالعلـوم والبيـان متقن أبـو الحسن
قادرٌ على اللسان محسنٌ أبو الحسن

صـادقٌ مصـدِّقٌ مسلَّمٌ أبو الحسن
عـالمٌ معـلم مـلقنٌ أبـو الحسن

انّه هـوَ الـذى محا الدجى بضـوئـه
فى العبـاد بالهدى مؤذنٌ أبو الحسن

مانعٌ عن السِناب دافع الى الصواب
راجعٌ الى الكتاب مذعنٌ أبو الحسن

لاتقـلْ بـأنه لميِّـتٌ وقـد مضـى
لاوبَلْ لَفى القلوب ساكن أبو الحسن

---

* طالب السنة النهائية ، قسم اللغة العربية ، بجامعة بنجاب ، لاهور. باكستان.

قصة قصيرة:

الضياع

أ.د. زينب بيره جكلي

(حين يصبح هم المرأة من الزواج إشباع ثروة ، ويصبح همّ الرجل من الحياة كأس وغانية. يكون الفراق غير الحميد).

عرفتها شابة فى الثالثة والعشرين من عمرها ، مرهفة المشاعر، متوقدة الأحاسيس، تكاد تذوب إذا ما أبدى لها إنسان، أي إنسان، عواطفه ، وكشف لها من مكنونات فؤاده.

كانت أقرب إلى القبح منها إلى الجمال ، ولكن عينيها الناعستين تضفيان عليها رقّة وجاذبية.

وكانت تربطني وأهلها روابط الجوار والعمل ، وكنت أراها تغدو و تروح بلا رقيب على تصرفاتها، وكانت تحدثني عن ثقة أهلها بها وعن تربيتهم "التحررية" لبنت منطلقة وشاب متفتح ، وكلاهما فيما تزعم يثبت شخصيته ، فى الحياة لينال منها المراد. وكنت وإياها على طرفي نقيض في التفكير ، فقد التزمتُ الإسلام منهج حياة ، ونبراس طريق التزمته عبادة وسلوكاً ، أمّا هي .. فهى فى نظر الشرع مارقة أو شبه مارقة ، أو لنقل إنها لاتعرف من الإسلام سوى الطعن فيه والتهجم على أهله!.. لقد ربيت في أسرة تلهث وراء المادة .

وتترك لأولادها العنان .. فخالطوا دعاة الاختلاط ، وتشبعوا كراهية الدين الحنيف في اجتماعات مغرضة ، ومع أصدقاء علمانيّين ، ينسبون إلى الإسلام زوراً وبهتاناً كل تخلف وتعصب ، ويوهمون الآخرين أنهم المتحررون. كنت مدرسة لها، ولما يمض على ذلك بضعة أشهر ، والشابة المخدوعة تحكي لي عن روحاتها وغدواتها مع الشباب دونما حياء أو مراعاة للمشاعر!!.. أو لعلها أرادت من ذلك أن تبدي لي نمطاً من حياتها ، لعلي أنساق معها في تيارها الجارف.. وكنت أسمع لها وأنا كارهة ، وقد أوجّه إليها ملاحظاتي إن استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وأحسست يوماً بعد يوم أنّ علاقتها بي بدأت تزداد وأنّ نبرة التحدّي الّتي عهدتها بها بدأت تخفت شيئاً فشيئاً .. ثم حلّ محلّها نظرات حبّ و وداد!!..

وجاءتني يوماً وأفصحت عمّا في قلبها من مكنونات أحاسيسها و مشاعرها المخبئة.. وكثيرات هنّ اللواتي كنّ يطرين ويثنين.. وقلت في نفسي: وما ينفع الثناء؟ ولكلّ منّا وجهةٌ هو موليها؟.. وبدأت أتخذ من حديثها عن استقامتي وعفتي وسيلة لتعريفها بالإسلام ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ومن أنا قبل الإسلام؟ وماشأني يومذاك؟!!..

وقالت لي ذات مساء..

أحبّك.. أحبّك يا أختاه. لو كانت المسلمات مثلك لأحببت الإسلام من أجلك..

وأدركت عند ذاك سبب البعد عن الإسلام..

لم ترتو المسكينة بخلقه ولا بصفاته ، ولا نوّرت عقلها بفكره أو بفقهه، فأنّى لها أن تحسن حديثاً؟ وما حديث الصبايا مثلها إلاّ عن زينة أو عن ثياب.. أما هي .. فقد كانت تحب حديث العلم والتقدم. والغرب والحضارة.. وتدعي أن الحجاب سبب التخلف ، أو هو ستار الماجنات.. وكنت أضيق منها، وأغار غضبة لله، فأرمي أولئك الشاردات بتسترهن بلباس العفيفات ، إن أردن ثروة من ثروات الحياة.

.....

وقلت في نفسي مرة وأنا أفكر بها:

لك الله يانهلة.. أنت ظمأى إلى من يرشدك إلى الله، ويعرفك على شرعه، فلستِ كباقي النساء لو أحسن توجيه طاقتك.. ولكن أنى لمثلي أن يتكلم مع مثلها وقد كمّت الأفواه إلا مع الأهل والأخوات؟

ولاحت لي في سماء دنيانا شعاعة من أمل... وأردفت.

لعلّ هذه المسكينة تحيا بعد سبات، فتصيّر طاقتها لله. فيكون لي ذلك ذخراً يوم المعاد، ولها كسباً في موقف الحساب، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم..

وذكرتُ ماضيّ..

أم أنك عاصية فهداني الله، ألم أنغمس في الرياضة مع اللاهيات.. ثمّ أراد الله لي الخير فهيّأ لي رفيقة مقعد لتبصّرني سواء السبيل.. فلأفتح لها صدري. فلعلّها.. ولعلّها .. ثم ترددت قليلاً:

كيف يكون ذلك؟ وهي من هي، ولها صاحب تزعم أنّه صديق؟!!

وأجابني داعي الإيمان:

أنقذي الشابة الغرقى من حياة شاردة..

وأحمد؟.. أليست لها معه روحات وغدوات دون علم ذويها، فما ينفع معها النصح وهو لها بالمرصاد يستهويها ويستغويها. قد تتوب إلى بارئها.

- لن يدعها أحمد وهو طامع بثروة أهلها، وأبوها عجوز سقيم
- لك ثواب الله على أيّ حال.. ألستِ داعية إلى الله؟
- وما مغنى الدعوة إن لم تتعرضي لأمثالها؟
- وتهجمها على الاسلام..
- ليست بأسوأ من عكرمة بن أبي جهل ، ومن صفوان بن أمية، ومن أبي سفيان، وقد استشهد الأوّل في سبيل الله وفقئت عينا الأخير في جهاده من أجل نشر دين الله.
- ولكن هذا الجيل لا يحمل من المروءة والشهامة ما حمله الأوائل
- بلى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "الخير فِيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة
- أو هذه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟
- أجل!! ألم تلفظ لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ ولئن يهدها الله على يديك خير لك من الدنيا وما فيها.

كانت هذه خواطر تصطرع في مخيلتي، وتدعني فى شد و جذب، فمن حولها رجال مَكَرَة، ونساء لاهيات عابثات..

ولكنها كانت قد بدأت تعجب بالإسلام..

.....

وبدأت معها حديثاً.. وذكّرتها بحبّ الله سبحانه لبريته، وذكر الليل والنهار.. وحلاوة الإيمان، وانشراح الصدر، والتهجد إلى الله في ساعات الخلوات...

وقلت لها مشجّعة:

ما أحسن الأذكار فى جنح الدجى لما سها كل البرايا حولنا.

.....

ونظرت إليها يوماً، وقد بدت على محيّاها علائم الايمان والحياء.. وقالت لى وهى خجلة:

- أريد أن أتزوّج
- هذا حق من حقوقك يا بنيّتى

وأردفت قائلة:

- ولقد كبرت و لم يتقدم إلىّ خاطب مناسب إلّا أحمد
- أحمد!! أهو هو؟
- لقد أحببته منذ سنين، أو ليس من عشق فعفّ فمات مات شهيداً؟ تسمرت أمامها كالمبهورة مما أرى وأسمع.. ودارت في مخيلتي ألاعيب الماكرين. وخداع الفتيات، وتشويه صورة الإسلام في عيون القارئين لإبعاد الشباب والشابات عنه.. ولجذبهنّ إلى الهاوية تحت ستائر شتى.. ليكون كلٌّ لكلّ متاع..
- وتمالكت نفسي أمامها، وقلت لها في عجب:
- كيف يكون شهيداً من كان همّه اللهات وراء النظرة والوجه الحسن؟ وإذا كان عبدالله بن المبارك قد عاب على عابد الحرمين أن يدع الجهاد في سبيل الله، وأن يشغل نفسه بالعبادة فأنشد وأرسل إليه:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنّك بالعبادة تلعب

من كان يخضب جيده بدموعه ... فنحورنا يوم الكريهة تخضب

إذا كان قد استنكر فعله والفضيل يجلس في الحرمين يهدي الناس إلى سواء السبيل، وقد طلب منه أن يجاهد العدو حتى تخضب لحيته بالدماء، ويشرب سيفه منها، فمن أين لهذا الشباب اللاهي بالجهاد.

- أوَ ليس الجهاد جهاد النفس؟
- للشهادة والجهاد معان أسمى من هذا بكثير، إن الجهاد إنقاذ العالَم من الضياع، ومما يتخبّط فيه من نظم وأعراف.. ومن خضوع للعباد إلى حرية يتوجه بها الإنسان إلى رب العباد
- على أيّ حال إنّني أريد أحمد.. أحرام أن أتزوّج؟
- كلّ أنثى يا نهلة تحب أن تأوي إلى رجل يكون لها سكنا وتكون له، هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.. ولكن أتتزوّج الواحدة أيّاً ما كان، وكيف ترتضين لنفسك رجلاً عابثاً مع العابثين، وأنت تخطين في طريق الخير والصلاح.. مهلاً يا أختاه.. ليس الزواج تسلية ومتعة بقدر ما هو مسؤلية وعبادة

.....

لم تستوعب كلامي وقتذاك.. كان رغبتها بالزواج من أحمد فوق ما يتصوره الخيال.. وليت أحمد كان يستحق ذلك.. به لا يبالي بها، إنما تتمنى ماله، ولتكن زوجته أو لا تكون.. ففي غيرها إشباع شهوة وتسلية ساعة..

ونصحتها مراراً.. ولكنّها بدت أمامي دائما الهفة الشاردة، وغطى إحساسها بالخوف من المصير كل تفكيرها وقالت لي أتريدين أن أبقى عانسة؟

ونسيت الصبر والقدر، وتخيلت الدنيا ذات بهجة ونعيم مع رجل ما جن أو... حليم!!.

وجاءت خطبة أختها لتذكي فيها مشاعر الأنثى.. ولم تعد تحتمل العزوبة وانصاعت للنداء الخافت... وصارحت أهلها بمن تريد.. وعجب الجميع من سوء الاختيار.. ثم ما حرّكوا ساكناً بعد. لقد أطلقوا لها حرية الاختيار من قبل ومن بعد!!..

وقلت لها ناصحة في محاولة أخرى

لو اخترت رجلاً صالحاً. وأفضيت عليه مشاعرك الرقراقة وعواطفك الفياضة لعشت العمر عمرين. سوف يعجب بك الرجل لأنوثتك. فاختاري شريك حياتك ممن يدعون إلى الجنة. وابعدي عن أحمد فإنه يقودك إلى النار... "ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم" كما يقول الله سبحانه وتعالى..

وكادت الفتاة أن تقتنع وشغلها الامتحان..

ومات أبوها في هذه الفترة.. وطمع أحمد بثروتها التي ورثتها. وما هي بالكثيرة ولكنها تكفي لشراء بيت متواضع.

وأرسل إليها أحمد بعد أن كادت تتحلى عنه:

"نهيلة.. أنت ماء حياتي. ورواء ظمئي. متى اللقاء يكون؟

إذا قالوا اتشعر بارتياح ونهلة قد نأت وحلّ البلاء

أجبت بأن قلبي في استعار ويطفئ جمره بها لقاء

وعينيّ مثل أعشى في ليال فإنّك لهما أيضاً ضياء

أنت الدرّة البهيّة.. وقد دب فيّ السقام لبعدك عنّي أسعدت صباحا فتاتي الغالية. ولا تنسي صديق السنين

ونهلة لا تميل الدهر عنها ونهلة للحياة هي الجمال

ونهلة بعدنا عنا عسير ورؤية نور عينيها المنال

كانت هذه الكلمات الناعمة كافية لأن تعيد نهلة صلتها بأحمد، ولا سيما بعد ما رسبت في امتحان الشهادة الثانوية، و لم يبق أمامها حرية للاختيار، بزعمها.

وحدثتها.. وحدثتها.. حتى مللت الحديث.. لقد أصمّت أذنيها وغشي قلبها غاشية سوداء.. وما ينفع حذر من قدر!! وقطعت صلتها بي، وما شأنها وشأني وقد ساقها الشيطان إلى حياة أخرى.. ودفعها الهوى إلى سوء العاقبة.. وهل يجرّ الهوى سوى الهاوية.. و للانزلاق طرق شتى.. ومرت سنون وسنون.. واغتربت عنها..وكنت أتلقط أخبارها بين الفينة والأخرى، وآسى لواقعها المرير.

لقد تزوجت أحمد كما رغبت. ورفعت الحجاب، وقصّرت الثياب. وزيّنت الوجه والشعر.. وقدّمت له ماها، دنياها وآخرتها.. وعاشت معه في بيت متواضع. لا أثاث فيه كالذي كانت تحلم.. ولاغذاء كالذي كانت تتغذى..

وضاقت بحياة لم تتعود عليها.. وضاق هو بإسار المرأة.. وانفلت يعاشر غيرها فشكت.. ثم بكت.. وصرخ وشتم ثم سبّ ولعن، ثم ضرب الضرب اللئيم.. ثم راح يعود سكران جذلاً مع السحر أومع الفجر..

ونهلة في البيت تخدم الصغار وترعى الأسرة.. وعانت ما عانت، وهو يتردى في كل يوم.. و لم تكن تدري أن الزمان يخبئ لها ما لم يكن في الحسبان.

.....

وكتبت إليّ رسالة عبرت بها عن مكنونات نفسها.. لقد وجدتني اليوم ملاذها الوحيد، كما وجدتني في الأمس البعيد.

".... ولم أجد في الزوج ما كنت أتمنّاه.. لم يفهم مشاعري الرقراقة.. ولا عاش مع أحاسيسي... لقد أحببته حباً جماً، وكنت معه كالنسيم الوادع، أذبت شخصيتي في ذاته، ولكنه كان كالذئب الماكر ، يتطايرالشرر من عينيه، ويحتال ليحصل على رغائبه، تخليّت عن ديني من أجله، فخسرت الدنيا والآخرة معاً وذلك هو الخسران المبين.

"أكتب إليك والفؤاد مجروح أسود، ينزف دماً، والعيون دامعة كنهرٍ جارف، والعواطف تتأجّج فى الصدر.. أنا كالمريضة بانفصام الشخصية.. أحدّث نفسي، أو أقف أمام محدّثي جامدة كتمثال أصمّ... في نفسي ثورة غضب جامحة كيف أرويها، أو كيف أطفئها، ضاع منّي كل شيئ.. الزوج.. وقد هجم عليّ ليذبحني بسكينة فهربت إلى الجيران.. ثم أويت إلى أهلي.. وضاع الولد.. وما أمرّ فراق الولد.. وما أشدّ إيلام فلذات الكبد، كل شيئ يهون إلا البعد عن الصغار.. وهم في مثل عمر الورود أحوج ما يكونون إلى جنان..

"جرحي لا يندمل، لم أخش الفقر بعد أن أنفق ما أنفق في عربدته، ولم أستصعب التنقلات من منزل إلى آخر أسوأ منه، استغلّ حبيّ له.. وبرز إلى الوجود كوحش متنمّر..

"أنا الآن أكاد أحبه، أحسّ بأن عقلي يهتزّ في دماغي، أتصفح دنياي معه، كيف افتقدتها بلحظات غضب، صرت الآن مطلقة.. وتزوج هو من أخرى هي أجمل منّي وأكثر مالاً.

"أعاتب ربّي مرة.. وأتوب أخرى.. وأود أن يضمّني صدرك الحنون، لينتشلني من واقعي المرير، فراسليني يا أختاه فكلماتك بلسم وشفاء"

قرأت تلك الكلمات اللاهثات..والدموع النافرات وقلت في نفسي: رجال!!.. بل أشباه رجال!!.. مع نساء يسعين وراء زواج!!.. وما الذي

ينتظر من إنسان همّه الدنيا وملذاتها.. لقد رأى غيرها فتحوّل عنها، ولو رأى ثالثة لأشبع هوى نفسه ولذة الدنيا عند أمثاله كأس شراب وغانية و:

إن هدى الإله سبيل فلح وحيد الدرب تاركه يعاب

وعدت أراسلها لاطفئ غليل نفسها بمعاني الإيمان والهداية، وما أحسنها من طبيب يداوي أسى الجراح..

****